"حالة ما بعد الحداثة" لديفيد هارفي

رحلة تفكيك القيم والمسلّمات

قراءة وتحليل: خضر إبراهيم حيدر

في كتابه المعنوَن «حالة ما بعد الحداثة»، بدا الكاتب والمفكر الاميركي ديفيد هارفي حائراً في مقاربته لموضوعه. والسبب ـ كما يتبين لنا من مقدمته ـ عائد الى الغموض الكثيف الذي أحاط بالمفهوم، سيما ما يتعلق بتعدد تعريفاته، بل وتناقضاتها في كثير من الأحيان.

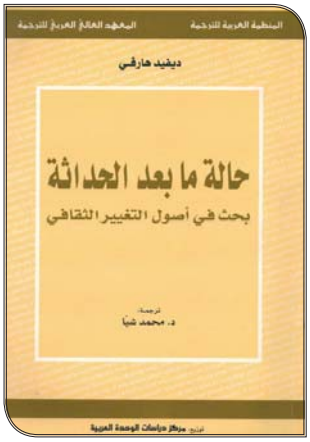

في المقدمة يقول المؤلف: «ليس بمقدوري ان أتذكر متى واجهت لفظة ما بعد الحداثة لأول مرة. ومن المحتمل ان يكون رد فعلي عندئذ مماثلاً كثيراً لردود فعلي للمفرادات الأخرى المختلفة التي تنتهي بالمقطع الذي يفيد بالمذهبية، والتي ظهرت وولّت في العقدين الماضيين من الزمان. ذلك على أمل أن تختفي تحت وطأة تناقضها الذاتي او ببساطة ان تفقد جاذبيتها كمجموعة من «الأفكار الجديدة» ذات الموضة». (من التمهيد ـ ص 15).

لكن الامر لم يتوقف عند هذا الانطباع الذي حرص المؤلف على ان يفتتح به كتابه المترجم حديثاً الى العربية. فهو يعترف بأن حالة ما بعد الحداثة على الرغم من النقاشات المستدامة حول غموضها وانفلاتها من نظام معرفي محدَّد وواضح المعالم،

فـإن ارتباطهـا بمسـتودع مـن الأفـكار الجديـدة التـي رافقتهـا جعلهـا أكـثر فأكـثر تتبـدى كمنظومـة قويـة مـن المشـاعر والأفـكار. وبـدا أيضـاً، أن الإنصـاف يقـضي بـأن تلعـب دوراً حاسـماً في تحديـد مسـار التطـور الاجتماعـي والسـياسي للمجتمعـات المتقدمـة.

وقبـل الـشروع في اسـتعراض الفِكَـر الرئيسـة التـي قدمهـا الكاتـب حـول «حالـة مـا بعـد الحداثـة»، نجـد مـن الـضروري الإحاطـة بنقـاط الفصـل والوصـل وعلامـات التمايـز التـي تميزهـا عـن الحداثـة.

موت التنوير

في تصويـر ذي دلالـة يقـدم الكاتـب الأمـيركي نيـل سـميث توصيفـاً لحالـة مـا بعـد الحداثـة بالكلـمات التاليـة: «التنويـر مـات، الماركسـية ماتـت، حركـة الطبقـة العاملـة ماتـت.. والمؤلـف ـ اي المفكـر ـ لا يشـعر بأنـه عـلى مـا يـرام أيضـاً...».

هـذه الكلـمات المعـبرِّة والمقتضبـة، تعكـس قـراءة انتقاديـة غربيـة للأحقـاب التاريخيـة التـي تلـت المرحلـة الذهبيـة لعـصر التنويـر. في ذلـك العـصر كان كل شيء ينتظـم تحـت إشراف عقـل الحداثـة الصـارم. وكانـت الأمـور واضحـة وبيّنـة لا لبـس فيهـا. إلا أنـه مـع حلـول القـرن الثامـن عـشر حـلّ زمـن جديـد، هـو زمـن الفـكاك والانفصـال بـين المعرفـة العلميـة والاحـكام الأخلاقيـة، واتسـعت الهـوة بـين منطـق العلـم ومنطـق القيـم.

انطلاقـاً مـن هـذا التوصيـف الـذي ينظـر الى مـا بعـد الحداثـة بوصفهـا واقعـاً تاريخيـاً وجغرافيـاً، يتسـاءل مؤلـف الكتـاب عـن ماهيـة هـذا الواقـع التاريخـي والأسـلوب الـذي ينبغـي اعتـماده حتـى الآن للتعامـل معـه. ثـم يسـأل: «هـل هـو مجـرد انحـرافٍ مَـرَضّي ام هـو مـؤشر الى ثـورة في حيـاة البـشر أكـثر عمقـاً واتسـاعاً مـن كل مـا تحقـق حتـى الآن في الجغرافيـا التاريخيـة للرأسـمالية؟

لقـد تحولـت مـا بعـد الحداثـة وعـلى مـدى العقـود القليلـة الماضيـة الى مفهـوم إشـكالي حـاضر باسـتمرار، في منتديـات الفكروالفلسـفة والسياسـة. وعـلى مـا يلاحـظ الكاتـب اليونـاني اندريـاس هويسـنز فـإن ثقافـة المجتمـع الرأسـمالي المتقـدم قـد تعرضـت لهـزّة حاسـمة في «بنيـة المشـاعر» التـي تخـص أبنـاء هـذا المجتمـع. ويقـول: **إن مـا** يظهـر باعتبـاره أخـر صرعـة، وخبطـة إعلانيـة، ومجـرد شـاهد زور إنمـا هـو في الحقيقـة نتـاج تحـول ثقـافي تراكـم ببـطء في المجتمعـات الغربيـة، وأدى الى تغيـير في «المعنـى».

لاهوت ما بعد الحداثة

ثمة إذا علامة جوهرية في حالة ما بعد الحداثة، هي التغيير في المعنى. والمقصود هنا، تغيير درامي ليس فقط في الشعور لدى ناس الزمن المابعد حداثي، وانما في طرق التفكير والايمان والايديولوجيا وانماط النشاط العام في السياسة والاقتصاد والاجتماع والسلوك الفردي...

واذ يذكر المؤلف شواهد كثيرة من التحولات التي أدت الى حدوث تغييرات في الثقافة والاجتماع والسياسات العامة وحتى الفنون على تنوعها، يشير الى ما شهده الفضاء الفلسفي الغربي على هذا الصعيد. لاسيما لناحية النتائج المترتبة على التداخل وعلى سبيل المثال ما بين البراغماتية الاميركية، وموجة ما بعد الماركسية، وما بعد البنيوية، التي ضربت فرنسا بعد عام 1968. فقد ادى التداخل الى ما أسماه برنشتاين[1] «موجة غضب عارمة ضد الانسانويه وتراث التنوير». تمثلت أبرز نتائج هذه الموجة من خلال إدانة عارمة للعقل المجرّد، وكُرهٍ عميقٍ لأي مشروع يستهدف تحرير الإنسان عبر تحريك قوى التكنولوجيا والعلم والعقل". حتى ان شخصاً في مقام البابا يوحنا بولس الثاني ـ كما يشير المؤلف ـ سوف يدخل النقاش منحازاً الى صفوف المحتفين بما بعد الحداثة. فالبابا ـ وبحسب روكو بتليوني، ـ وهو أحد اللاهوتيين المقربين منه ـ «لا يهاجم الماركسية او العلمانية الليبرالية باعتبارهما موجة مستقبلية»، وانما باعتبارهما «فلسفتين من القرن العشرين فقدتا رونقهما وعفا عليهما الزمن». ويعلق المؤلف على كلام بتليوني مبيناً ان الأخير أراد ان يتوصل الى نتيجة تقول: إن الأزمة الاخلاقية لعصرنا هي تحديداً أزمة فكر التنوير. فإذا كان صحيحاً ان هذا الفكر قد سمح فعلاً للانسان بتحرير ذاته «من الجماعة ومن تقاليد العصور الوسطى التي حجبت حريته الفردية»، إلا أن إصرار الفكر هذا على «الذات بدون الله» قاد الى تناقض ذاتي، إذ تُرك العقل، وفي غياب حقيقة الله، ليتحول الى مجرد أداة ومن دون اي هدف روحي او أخلاقي. وإذا كان اكتشاف الرغبة والقوة «لا يحتاج الى نور العقل»، فإن العقل بالتالي يصبح اداة اخضاع لما تبقى. وعليه فالمشروع اللاهوتي ما بعد الحداثي هو استعادة الله من دون ترك قدرات العقل[2].

---

[1] ـ Richard J. Bernestein, ed Habermas and Modernity (oxford: Blackwell, 1985, P 25.

[2]ـ حالة ما بعد الحداثة ـ ص 63.

إن هـذا اللجـوء الى خطـاب مـا بعـد الحداثـة ومنطقهـا، مـن قبـل شـخصيات بـارزة ومركزية مثـل البابـا انمـا يشـير بوضـوح ـ كـما يلاحـظ المؤلـف ـ الى عمـق التحـول الـذي اصـاب «بنيـة المشـاعر» في الثمانينيـات. ومـع ذلـك يبقـى هنـاك قـدر مـن الغمـوض يحيـط بالمـدى الـذي يمكـن ان تبلغـه «بنيـة المشـاعر» الجديـدة تلـك.

ثـم يتسـاءل عـلى الشـكل التـالي: هـل تمثـل مـا بعـد الحداثـة ، مثـلاً، كـسراً جذريـاً مـع الحداثـة، او انهـا ببسـاطة انتفاضـة داخـل الحداثيـة ضـد شـكل مـن الحداثيـة العليـا، هـل مـا بعـد الحداثيـة اسـلوب بحيـث يمكـن رد تباشـيره السرياليـة ونيتشـه أو الى القديـس اوغسـطين في اعترافاتـه في القـرن الرابـع[1]، أو يجـب معاملتهـا باعتبارهـا تصـور عـصراً كامـلاً (بـدأ في الخمسـينيات او السـتينيات او السـبعينيات»؟ .. ثـم هـل ثوريتهـا هـي بفضـل معارضتهـا لـكل أشـكال مـا وراء الروايـة (بمـا فيهـا الماركسـية والفرويديـة واشـكال عقـل التنويـر الاخـرى)، أو انهـا ببسـاطة تريـد تدجـين الحداثـة واختـزال تطلعاتهـا التـي بهـت لونهـا الى مبـدأ «دعهـم يفعلـون» او حتـى النظـر اليهـا، باعتبارهـا «فـن عـصر التضخـم»، او انهـا «المنطـق الثقـافي للرأسـمالية الجديـدة»؟

في التمايز بين الحداثة وما بعدها

عـام 1863 يقـول الشـاعر بودلـير في مقالتـه الاصليـة «رسـام الحيـاة الحديثـة «ان الحداثـة» هـي المؤقـت، وسريـع الـزوال، والجائـز، وهـي نصـف الفـن، بينـما الأبـدي والثابـت هـو النصـف الآخـر»[2].

أمـا مارشـال بيرمـان[3] (berman) فـيرى ان «هنـاك شـكلاً مـن التجربـة الحيـة ـ تجربـة المـكان والزمـان، والأنـا والآخـر، واحتـمالات العيـش ومخاطـره، حيـث يشـترك فيهـا الرجـال والنسـاء في ارجـاء العـالم اليـوم كافـة. هـذا الحجـم مـن التجربـة المشـتركة هـو مـا ادعـوه «حداثـة». يضيـف: أن نكـون حديثـين يعنـي ان نجـد انفسـنا في بيئـة تعـد بصنـوف المخاطـرة والقـوة، والمتعـة، والـثروة، وتحـولات الـذات والعـالم مـن حولنـا وان تهددنـا في الآن نفسـه

---

[1] ـ Arthur Kroker and David Cook, The Postmodern Scene: Excremental Culture and Hyper-Aesthetics New York; St. Martin's Press 1986

[2] ـ من المصدر نفسه ـ ص 27.

[3] ـ Marshall Berman All That is Solid Melts Into Air: The Experience of Modernity (New York: Simon and SchusterK 1982, p15

مخاطـرة في وسـعها ان تدمـر كل مـا نملـك، وكل مـا نعـرف، وكل مـا نحـن عليـه. البيئـات الحديثـة والتجـارب الحديثـة تعـبر كلهـا حـدود الجغرافيـا والاثينـات وحـدود الطبقـات والهويـات، والديـن والايدولوجيـا؛ ويمكـن بهـذا المعنـى القـول ان الحداثـة انمـا توحـد البشريـة. لكنهـا وحـدة أضـداد، وحـدة اللاوحـدة فهـي تحيانـا جميعـا الى خضـم تيـار مـن العزلـة المتزايـدة والـولادة مـن جديـد، ان تكـون جـزءا مـن عـالم حيـث، كـما يقـول احـد المفكريـن العظـام «كل مـا هـو صلـب قـد يتبخـر في الهـواء»[1].

وكان الشـاعر ييتـس (w.b.Yeats) قـد التقـط الفكـرة نفسـها حـين رأى أن الاشـياء تنفـك بعضهـا عـن بعـض؛ ولا يسـع المركـز الثبـات؛ ذلـك بـأن الفـوضى وحدهـا التـي تشـيع في العـالم. أمـا كيـف نفـسر ذلـك كلـه، وكيـف نكتشـف العنـاصر «الخالـدة التـي لا تتغـير» في غمـرة تلـك التصدعـات الجذريـة، فـإن ذلـك يصبـح مشـكلة جديـدة. وحتـى لـو ظلـت الحداثيـة ملتزمـة عـلى الـدوام، باكتشـاف «السـمة الجوهريـة في مـا هـو عـرضي»، فهـي ملزمـة الآن ان تفعـل ذلـك في حقـل مـن المعـاني المتغـيّرة باسـتمرار والتـي غالبـاً مـا بـدت «تناقـش مـع تجربـة الامـس العقلانيـة».

فلقـد تشـظت الممارسـات والأحـكام الجماليـة الى نـوع مـن «القصاصـات الجنونيـة المملـوءة بأنـواع لا تحـصى مـن المداخـل الملونـة التـي لا رابـط بينهـا، ولا يجمعهـا اطـار محـدد، عقـلاني او اقتصـادي والتـي يصفهـا رابـان بأنهـا السـمة الجوهريـة للحيـاة المدينيـة»[2].

مـع ذلـك يبقـى ان نتلمَّـس الاجابـة عـلى السـؤال التـالي: أيـن كان يمكننـا أن نبحـث وسـط ذلـك كلـه عـن قـدر معـين مـن حسـن الانسـجام، فضـلا عـن شيء مقنـع بصـدد «الخالـد الـذي لا يتغير»، والـذي كان مـن المفـترض ان يبقـى في هـذه الدوامـة مـن التغيـير الاجتماعـي في المـكان والزمـان؟

قـدم مفكـرو عـصر التنويـر اجابتهـم الفلسـفية، بـل والعمليـة، عـن هـذا السـؤال. ولأن الاجابـة هـذه كانـت حـاضرة في كل النقـاش اللاحـق لمعنـى الحداثـة، فهـي تسـتحق بعـض التفحـص الدقيـق عـن كثـب أكـثر. فعـلى رغـم ان مصطلـح «حديـث» ليـس بالجديـد تمامـاً، فـإن مـا يدعـوه الفيلسـوف الالمـاني المعـاصر يورغـن هابرمـاس «مـشروع» الحداثـة انمـا يعود أساسـاً الى القـرن الثامـن عـشر. لكـن المـشروع سـوف يصـل مـن خـلال الجهـد الفكـري

[1]ـ المصدر نفسه ـ ص 28.
[2]ـ نقلا عن المصدر نفسه ـ ص 29.

الاستثنائي لمفكري عصر النهضة الى حد «تطوير علم موضوعي، وأخلاق وتشريع عالميين، وفن مستقل لا يتبع الا منطقه الداخلي الخاص».

الانتقال الصعب

جاء القرن العشرون ليمزق التفاؤل (الذي أطلقه التنوير) إرباً عبر معسكرات الموت، وفرق الموت، وعبر العسكرة، والحربين العالميتين، وخطر الفناء النووي وتجربته بالفعل في هيروشيما وناغازاكي. بل انه تضمن، وعلى نحو أسوأ، أن يكون مشروع التنوير قد حكم عليه ان يتحول الى عكس ما يعلنه، وأن يحيل مطلب التحرر الانساني الى نظام اضطهاد عالمي باسم تحرير البشر. تلك كانت الاطروحة الجريئة التي تقدم بها هوركهايمر وأدورنو في عملهما «ديالكتيك التنوير الصادر عام 1972». لقد حاولا البرهنة، وفي الذهن تجربة المانيا هتلر وروسيا ستالين، على ان المنطق الذي يقبع خلف عقلانية التنوير هو منطق هيمنة واضطهاد. والتلهف الى السيطرة على الطبيعة جَلَبَ معه السيطرة على البشر، ولم يكن يمكن ان يوصل ذلك في النهاية «إلا الى كابوس قهرٍ للذات. وهكذا جرى تصوُّر تمرد الطبيعة، ـ الذي افترضاه الطريق الوحيد للخروج من المأزق ـ على انه تمرد الطبيعة البشرية بالذات على سلطة الاضطهاد لدى العقل الأداتي الصرف ضد الثقافة والشخصية.

لقد انطوى فكر التنوير، بالطبع، على لائحة طويلة من المشكلات الصعبة، وعلى قدر غير قليل من التناقضات المثيرة للقلق. أول التناقضات تلك، وكان حاضراً باستمرار، هو مسألة العلاقة بين الوسائل والغايات، بينما تبدو الاهداف نفسها عصية على التعيين على نحو دقيق الا من ضمن مشروع (طوباوي)، غالبا ما بدا مشروعا قائما على الاضطهاد بالنسبة للبعض، بينما هو للبعض الآخر مشروع تحرر والى ذلك، لا مفر من مواجهة مسألة من يملك حق إعلان سلطة العقل العليا، وفي ظل اية شروط يتحول ذلك العقل الى سلطة ملموسة؟ فالبشرية بحسب روسو ملزمة بان تصبح حرة ويعاقبه الثورة الفرنسية لم يتورعوا عن اخذ هذه الملاحظة في تفكيرهم السياسي وان يضيفوا اليها في الممارسة ما لم يكن جزءا من فكر روسو الفلسفي. اما فرنسيس بيكون، أحد آباء فكر التنوير، فيتخيل في مجتمعه الطوباوي بيتا يسكنه الكهنة الحكماء ممن سيكون حراس المعرفة وقضاة الأخلاق، والعلماء الحقيقيين، فيما هم يعيشون خارج الحياة اليومية للجماعة، وفي وسعهم ان يمارسوا سلطة اخلاقية على الحياة تلك[1].

[1] ـ حالة ما بعد الحداثة ـ ص 32.

من جانبه «رأى ماكس فيبر وهو يقرأ مأزق المشروع التنويري،أن الامل والتوقعات التي كانت معقودة على مفكري حركة التنوير تحولت مرارة ووهماً ساخراً. لقد سعى هؤلاء باستمرار الى صلة ضرورة قوية بين صعوبد العلم والعقلانية وحرية الإنسان الشاملة. ولكن حين وزالت الاقنعة وتبدت الحقيقة، تبين انتراث التنوير انما قام على انتصار العقلانية الأداتية ذات الأغراض المحددة، هذا الشكل من العقلانية حفر عميقا في جملة حياتنا الاجتماعية والثقافية، ومن ضمنها البنى الاقتصادية، والقوانين، والإدارة البيروقراطية، وحتى الفنون. وعليه فلا يقود نمو العقلانية الادوية ـ الفرضية الى تحقيق ملموس للحرية الشاملة، وانما الى ايجاد «قفص حديدي» من العقلانية البيروقراطية لا فرار منه»[1].

إذا أمكن قراءة تحذير فيبر «الرصين،» كما لو كان آية ننقشها على شاهد قبر عقل التنوير على حد تعبير ديفيد هارفي. فإن هجوم نيتشه المبكر على مقدماته الاساسية انما كان إحدى غضبات آلهة الاغريق. لقد بدا نيتشه في المقلب الآخر تماماً من تعريف بودلير، حيث «الحديث» أو الحداثي، بالنسبة اليه ليس اكثر من طاقة جامعة، وارادة العيش والقوة والسباحة في بحر من عدم الانتظام. كذلك والفوضى، والتدمير، والاغتراب الفردي واليأس. وكل ذلك «تحت سطح الحياة الحديثة، المغطى بالمعرفة والعلم، حيث تكمن قوى دافعة برية، بدائية، وخالية من كل أثر للرحمة»[2]. ان كل صور التنوير المتعلقة بالحضارة، والعقل، والحقوق الكلية، والأخلاق، انتهت الى لا شيءْ. لقد تمثل الجوهر الدائم والثابت للإنسانية أحسن تمثيل في الصورة الخرافية لديونيزوس: أن تكون في الآن نفسه «خلافاً مدمراً» (أي أن تشكل العالم الراهن من الفردية والصيرورة، أي عملية تدمير الوحدة)، ومدمرا خلاقا (أي أن تزيل عالم الفردية الوهمي، عملية استعادة الوحدة). والطريق الوحيد لتأكيد الذات هو ان تقدم، أن تظهر ارادة، وسط هذا الدفق من الخلق التدميري والتدمير الخلاق ولو بلغت النتائج حد المأساة[3].

وتبدو صورة «التدمير الخلاق» في غاية الاهمية لفهم الحداثة لأنها نابعة تماماً من المآزق العملية التي واجهت تطبيق المشروع الحداثي، إذ كيف يمكن، في النهاية، أن

---

[1] ـ المصدر نفسه، ص 5.

[2] ـ **Malcolm Bradbury and James Mc Farlane eds Modernism: 18901930., Pelican Guides to European Literature Harmondsworth: New York Penguin 1976m P 446.**

[3] ـ حالة ما بعد الحداثة ـ المصدر نفسه ـ ص

يقوم عالم جديد من دون تدمير العالم الذي كان موجوداً من قبل؟ اما نموذج هذا المأزق، بحسب بيرمان[1] ولوكاتش[2]، فتجده جليا في فاوست Faust لغوته. وفاوست، البطل الملحمي المستعد لتدمير الخرافات الدينية، والقيم التقليدية والتقاليد، لبناء عالم جديد شجاع من رماد العالم القديم، فاوست هذا هو نموذج تراجيدي. يجبر فاوست نفسه، وكل الآخرين (بمن فيهم الياطين)، بالفكروالعمل معا، على طلب الحد الأقصى من التنظيم، والألم، والكد، وصولاً الى السيطرة على الطبيعة، وخلق مشهد جديد ، رائع وسام، يستوعب كل الطاقات الكامنة والكفيلة بتحرير البشرية من الفاقة والحاجة. ولإظهار إرادة ازالة كل ما يعيق ولادة هذا العالم الجديد السام، لا يتورع فاوست في منتهى رعبه عن ترك شياطينه تقتل زوجين متحابين طاعنين في السن يعيشان في كوخ صغير على شاطئ البحر لا لسبب الا لكونهما ببساطة لم يعودا ملائمين للعيش طبقا لتصميم العالم الجديد. [3].

في الفروقات بين الحداثة وما بعدها

عند هذه القضية بالذات يجد المؤلف طريقاً آخر لبيان مزايا كل من الحداثة وما بعد الحداثة كما رسمها الباحث والأكاديمي الاميركي من أصل مصري إيهاب حسن. يرسم حسن سلسلة من التعارضات النمطية لالتقاط الوسائل التي ربما بدت من خلال ما بعد الحداثية كرد فعل على الحداثية. ثم يستعين بترسيمة جدولية مقارنة وضعها على الوجه التالي[4]:

---

[1] ـ Berman All That is Solid Melts Into Air: The Experience of Modernity

[2] ـGyrgy Lukacs Goethe and his age= Goethe und seine Zeit, Translated by Robert Anchor London Merlin press 1968.

[3]ـ أن عملية التطوير نفسها، حتى وهي تحيل الارض البرية الى مكان طبيعي واجتماعي مثمر، تعيد زرع البري هذا داخل الإنسان الذي انجز العملية. وتلك هي مأساة عملية التطور».

[4] ـ ihab Hassan Paracriticisms: Seven Speculations of the Tumes (Urbanam Il: University of Illinois press 1975 and the Culture of Postmodernism . Theory Culture and Society, vol 2, no 3 , 1985.

الفروقات الترسيمية بين الحداثة وما بعد الحداثة[1]

الرومنطيقية / الرمزية	ما بعد الطبيعة / الدادائية
الشكل/(متصل ومقفل)	اللاشكل / (متقطع ومفتوح)
قصد	لعب
تصميم	مصادفة
تراتبية	فوضى
سيد/كلمة	استنزاف/صمت
موضوع الفن/ عمل منته	عملية/أداء/حدث
خلق/شمولية/تركيب	اشتراك
مركزة	تناثر
نوع [فني أو أدبي]حدد	نص /عبر النص
سيمائيات	خطاب
نموذج	كلمة أو عبارة منظمة
Hypotaxis ترتيب بواسطة روابط...	باراتاكسيس parataxis ترتيب بدون روابط بخاصة الجمل والعبارات
استعارة	بديل مرادف
جذر/عمق	جذمور(ساق سطحية) سطح
تفسير قراءة	ضد التفسير/قراءة خاطئة
مدلول	دال
يمكن قراءته(مقروء)	يمكن كتابته (مكتوب)
رواية(تاريخ كبير)	ضد الرواية(تاريخ صغير)
لغة سيدة	لغة مفككة
سمة	رغبة
نمط Type	متغير Mutant
تناصلي /ذكوري	متعدد الاشكال(متخنّث)
جنون العظمة	انفصام الشخصية
الأصل /السبب	الاختلاف /الأثر
الله ـ الأب	الروح القدس
ماورائيات	سخرية
حتمية	لا حتمية
محايثة	تجاوز
مسافة	اشتراك
حضور	غياب

[1] ـ ihab Hassan the Culture of Postmodernism . Theory Culture and Society, vol 2, no 3 , 1985. pp. 123, 124

هنـاك الكثـير مـما يسـتدعي التفكـير في هـذا المخطـط، والمسـتند الى حقـول معرفيـة متنوعـة مثـل اللغويـات، والانثربولوجيـا، والفلسـفة، والخطابـة، وعلـم السياسـة واللاهـوت. فقـد اشـار حسـن، وبسرعـة الى أن الثنائيـات المتعارضـة اعـلاه مترجرجـة وملتبسـة. ورغـم ذلـك فهـي تحـدد مقـداراً مـما تعنيـه تلـك الفـروق.

زمن التشظي والتغير وعدم اليقين

وبنـاء عـلى مثـل هـذه القـراءات فـإن حقيقـة مـا بعـد الحداثـة الاكـثر بـروزاً هـي تلـك التـي يراهـا ديفيـد هـارفي طبقـاً للمواصفـات التاليـة: «قبولهـا الكامـل للعـرضي، والمتشـظي والمتقطـع والفوضـوي، باعتبارهـا تشـكل نصـف مفهـوم بودلـير للحداثـة. ان طريقـة اسـتجابة مـا بعـد الحداثـة للحقيقـة تلـك انمـا تجـري بطريقـة خاصـة. فهـي لا تحـاول تجاوزهـا ولا الهجـوم عليهـا، ولا حتـى تعريـف العناصر«الثابتـة والدائمـة» التـي يمكـن ان تقـوم بهـا. مـا بعـد الحداثـة هـو واقـع يسـبح، بـل يتمـرغ، في موجـة مـن التشـظي والتغـير، كـما لـو كان ذلـك هـو كل مـا في الأمـر. في الحقـل المعـرفي نفسـه يقـترح علينـا فوكـو عـلى سـبيل المثـال «تطويـر ممارسـة وفكـر ورغبـات» بالتوالـد والتجـاوز والتقطيـع، وعـبر «تفضيـل مـا هـو وضعي ومتعـدد، وتفضيـل الاختـلاف عـلى التجانـس، والمتحـرر عـلى الموحـد، والمتنقـل المتفلِّـت عـلى النظـام». وحتـى حـين تعـود مـا بعـد الحداثـة الى المـاضي لتبريـر شرعيتهـا، فهـي انمـا تعـود الى تيـار في الفكـر، وبخاصـة عنـد نيتشـه، حيـث يشـدد عـلى طابـع الفـوضى العميـق في الحيـاة الحديثـة، وعـلى عجـز الفكـر العقـلاني عـن التقـاط ذلـك. لا يعنـي ذلـك بالتأكيـد، أن مـا بعـد الحداثـة هـي ببسـاطة نسـخة معدلـة مـن الحداثـة، فالثـورات الفعليـة عـلى مسـتوى الافـكار إنمـا تحـدث عندمـا يغـدو مـا هـو كامـن ومغلـوب في حقبـة مـا مكشـوفاً وغالبـاً في حقبـة اخـرى. ورغـم ذلـك، فـان اسـتمرار واقـع التشـظي والعـرضي والتقطيـع والتغـير الفوضـوي في الحداثـة وفي مـا بعـد الحداثـة في آن هـو أمـر لا يمكـن تجـاوزه[1].

إن متابعـة التشـظي والعرضيـة بطريقـة ايجابيـة تسـتدعي لائحـة كاملـة مـن النتائـج التـي تحيـل مبـاشرة الى تعارضـات حسـن أعـلاه كـما يقـول المؤلـف. نجـد، بـداءة، كتّابـاً ومفكريـن مثـل فوكـو وليوتـار يهاجمـون كل فكـرة مفادهـا انـه يمكـن ان يكـون هنـاك مـا وراء لغـة، أو مـا وراء روايـة، أو مـا وراء نظريـة يمكـن ان تربـط بهـا او تتمثـل عبرهـا كل الاشـياء. فالحقائـق

[1] ـThe Foucault Reader Edied by Paul Rabinow (Hamondsworth: Penguin 1984, P xiii Michel Foucaul

الكلية والثابتة لا يمكن تعيينها، هذا إذا وجدت في الأساس. فهؤلاء الكتاب اذ يدينون كل ما وراء الروايات (او الترسيمات المفسرة لكل شيء كما عند ماركس او فرويد) باعتبارها توتاليتارية، يؤكدون بالمقابل على تعددية صياغات «خطاب ـ السلطة» (فوكو)، او «ألعاب اللغة» (كما عند ليوتار). وليوتار يعرِّف ما بعد الحداثة ببساطة باعتبارها «التشكيك في ما وراء الروايات».

في ميدان التأصيل النقدي العميق لحالة ما بعد الحداثة تستحق افكار فوكو المزيد من الاهتمام ـ وبخاصة كما جرى تطويرها في أعماله الاولى ـ ذلك لأنها مثلث احد المصادرالثرة لحجج ما بعد الحداثة. والعلاقة بين السلطة والمعرفة هي الموضوع المركزي في الاعمال تلك. لكن فوكو[1] سرعان ما يتخلى عن فكرة تمركز السلطة كليا في الدولة، وذلك عبر القيام «بتحليل متصاعد للسلطة يبدأه من آلياتها الميكروسكوبية، والتي لكلّ منها تاريخها، ومسارها، وتقنياتها وتكتيكاتها، ثم النظر كيف أن آليات السلطة تلك قد استثمرت، واستعمرت، واستخدمت، والتفت، واستمالت، وانتقلت، وامتدت... الخ ولا تزال، من خلال آليات اخرى أكثر تصميماً وبواسطة أشكال من الهيمنة العالمية».

لقد كُتب الكثير من المطالعات حول طبيعة وهوية ما بعد الحداثة إلا أن الشيء الأكيد هو أن هذه الكتابات فتحت على المزيد من الجدل حول المفهوم.

لقد سبق للفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتار ان وضع كتاباً تحت العنوان نفسه. أي «حالة ما بعد الحداثة» (Postmpdern Condition). وقد كتبه كتقرير عن المعرفة لحكومة كيبيك [في كندا]. في هذا الكتاب يبحث ليوتار في المعرفة والعلم والتكنولوجيا في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. وفيه نجد أن فكرة المجتمع بالذات باعتباره شكلاً من أشكال «الوحدانية» (Unicity) (كما في الهوية الوطنية او القومية) يحكم عليها بأنها أخذت تفقد مصداقيتها، فالمجتمع كوحدانية ـ سواء تم تصوره ككل عضوي (دوركهايم)، او كنظام وظيفي (بارسونز)، أو ككل ينقسم جوهرياً الى طبقتين متعارضتين (ماركس) ـ لم تعد له مصداقية في ضوء التشكيك المتنامي باتجاه اعطاء شرعية لأنواع السرد الفوقي (Metanarrative).

ولكن هناك في هذا المجال سردان مؤثران هما:

---

[1] ـ Michel Foucault, Power/ Knowledge: Selected Interviews and other Writings, 19721977ـ, Edited by Colin Gordon: Translated by Colin Gordon (et al) New York: Pantheon Books 1972, P 159.

أولاً: الفكـرة القائلـة بـأن المعرفـة يتـم انتاجهـا مـن اجـل ذاتهـا (وهـذا نموذجـي عنـد المثاليـة الالمانيـة).

وثانيـاً: الفكـرة القائلـة بـأن المعرفـة تـم انتاجهـا مـن أجـل شـعب خاضـع في سـعيه وراء التحـرر. أمـا مـا بعـد الحداثـة، فـترى ان أهـداف المعرفـة هـذه قـد اصبحـت الآن عرضـة للشـك والتفنيـد، وبالاضافـة الى ذلـك، لا يتوفـر دليـل نهـائي لتسـوية الخلافـات حـول هـذه الاهـداف. في عـصر الحاسـوب، حيـث التعقيـد في ازديـاد مسـتمر، فـإن امكانيـة وجـود سـبب منطقـي مفرد او مـزدوج للمعرفـة او العلـم أصبحـت بعيـدة. في السـابق، كان الايمـان بنـص سردي ما(مثـل العقائـد الدينيـة) يكفـي لحـل الصعوبـة المحتملـة. ومنـذ الحـرب العالميـة الثانية قامـت التقنيات والتكنولوجيـات، كـما توقـع ماكـس فيـبر (Weber) «بتحويـل التأكيـد مـن غايـات الفعـل الى وسـائله»[1]. وبغـض النظـر عـما إذا كان شـكل توحيـد الـسرد مـن النـوع التأمـلي او التحـرري، فـإن إعطـاء الشرعيـة للمعرفـة لا يمكـن ان يعتمـد عـلى «سرد كبـير» (Grand Narrative). حتـى العلـم الآن سـوف يكـون فهمـه بالشـكل الأفضـل عـن طريـق نظريـة فتغنشـتاين المتعلقة بـ«لعبة اللغـة» (Language Game). وبالمناسـبة هنـا، تفيـد لعبـة اللغـة أنـه مـا مـن مفهـوم او نظريـة يمكنهـا ان تحيـط باللغـة بكلِّيتهـا بصـورة مناسـبة وكافيـة، ذلـك لأن المحاولـة للقيـام بذلـك هـي نفسـها تكـون لعبـة لغويـة محـددة خاصـة بهـا. وهكـذا، مـرة اخـرى يمكـن القـول إن كل أنـواع الـسرد الـكلي الفخـم لا تمتلـك مصداقيـة بعـد الآن لأنهـا جـزء مـن لعبـة لغويـة هـي ذاتهـا جـزء مـن لعبـة لغويـة متعـددة.

الكتاب: حالة ما بعد الحداثة ـ بحث في أصول التغيير الثقافي.

الكاتب: ديفيد هارفي.

المترجم: محمد شيّا.

الناشـر: المنظمة العربية للترجمة ـ توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 2005.

[1] ـ Jean-François Lyotard Postmodern Condition: A Report on Knowledge Translation from the French by Geoff Bennington and Brain Massumi: Foreword by Fredrie Jameson(Minneapolis Minnesota University Press; Manchester : Manchester University Press 1984). P 37.